



الاختلال المتفاقم وإلى أين يتجه العالم؟

﴿ رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةٌ وَهِيَ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

[الكهف: 10]

عبد الرحمن السالمي

عندما نتحدث عن الاختلال بهذا الشكل العام أو الشامل يكون المقصود به النظام العالمي، المتمثل في الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والمفوضيات والوكالات واللجان التابعة للأمم المتحدة، والتي تتمتع بالاستقلالية الإدارية والمالية والبرامج في مجالاتها المتخصصة بوصاية وإشراف الأمين العام للأمم المتحدة. والاختلال حادثٌ ومتمادٍ في الوظائف والمهمات والقدرات على اتخاذ القرار. ولنذكر بعض الوقائع الجديدة.

- أزمة وباء كوفيد-19 (كورونا)، والمؤسسة الدولية التي كان عليها المواجهة هي منظمة الصحة العالمية. وقد كان عليها - من خلال مجلسها - تنظيم الإعدادات والاستعدادات، والاستعانة بالمؤسسات الأخرى؛ مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، وبالدول الأعضاء في الأمم

المتحدة، ومن ضمنها الدول الأعضاء في مجلس الأمن؛ بيد أن فعالية المنظمة لم تبرز كثيراً إلا في مجال الإحصاء لانتشار الوباء، ومجال مساعدة الدول الصغيرة ذات البنى التحتية الصحية الهشة، أما الدول المتوسطة والكبرى فقد انضردت كلٌّ منها بخططها الخاصة، وقليلة هي الدول التي تعاونت حقاً مع منظمة الصحة الدولية لجهة التشارك في المعلومات والتجارب، ولجهة الدعم المادي للإنفاق على دعم القطاعات الصحية في الدول الضعيفة في مجال البنى مثل المستشفيات ومراكز الإسعاف، والأطباء والممرضات، والأدوات الطبية. وقد ارتبكت المنظمة كثيراً عندما اتَّهم الرئيس ترامب الصين بأنها أصل الوباء، واتَّهم منظمة الصحة وأمينها العام بالانحياز للصين. وعندما بدأت اللقاحات تظهر لم يكن واحداً منها مصدره عمل المنظمة، واكتفى أمينها العام في المدة الأخيرة بالتصريح أن الوباء لن ينتهي بنشر اللقاحات، وأنّ دولاً كثيرةً سوف تتضرر أكثر من الوباء، لانعدام الاستعدادات، وفقد المقوّمات، وعدم القدرة على شراء اللقاحات. والذين ستعجز المنظمة عن إمدادهم باللقاحات يبلغون المليارات عدداً.

لكن في الأسابيع الأخيرة أظهرت منظمة الصحة بعض القدرات الإضافية: أنشأت تعاونية كوفاكس لمساعدة الدول الفقيرة في الحصول على اللقاحات، وأرسلت بعثة إلى الصين للبحث في أصل الوباء وإمكانيات المواجهة والوقاية في المستقبل.

- في السنوات العشر الأخيرة اشتعلت حروبٌ ونزاعاتٌ في منطقة الشرق الأوسط وجوارها، وهي ذات نوعين أو منشأين:

الأول: نشوب ثورات وتمردات في عدة دولٍ عربية، تحولت إلى نزاعات مسلحةٍ لم يخمد أوارها بعد.

والنوع الثاني: مطامح واستهدافات من جانب الدول الإقليمية والأطراف الدولية في تلك الدول التي تسيطر فيها الفوضى، من أجل الموارد والمجالات الاستراتيجية في البر والبحر والأجواء. وفي كل النزاعات

والحروب تدخل مجلس الأمن وأصدر قرارات لم يُمكن إنفاذها؛ بسبب تضارب مصالح وتحالفات الدول الكبرى بالمنطقة. أريك هوبسباوم المؤرخ البريطاني الكبير قال: إنه في ثلثي الحالات النزاعية فإنّ مجلس الأمن إما أنه يعجز عن إصدار قرار، أو يتمكن من إصدار قرار دونما تمكُّنٍ من إنفاذه.

- ومنظمة الصحة العالمية نموذجٌ لمحدودية قدرات المؤسسات الدولية، وإلاّ فإنّ سائر المفوضيات والوكالات واللجان تتضاءل فعاليتها بسرعاتٍ متزايدة مثل منظمة الأغذية والزراعة، ومفوضية اللاجئين، ولجنة حقوق الإنسان. وقد خفضت منظمة الأغذية أو مفوضية اللاجئين أو منظمة غرب آسيا من أهوال المجاعات، أو معاناة المهاجرين، أو الواقعين ضحايا في مناطق الحروب، أو الذين تصحرت أراضيهم بسبب الجفاف والقحط ودمار الزراعات التقليدية والاختلال البيئي؛ لكنّ هذه الجهات ذاتها تنذر كل الوقت أن الأموال تتناقص في مواجهة الاحتياجات، وأنّ المعاناة تزداد على كل الصُّعد دونما قدراتٍ على تلبية المتطلبات الأساسية للبقاء الإنساني.

- تفاقُمُ ظواهر ما صار يُعرف بالعولمة والمتمثلة في تراكم السِّلَع والأموال، والتطور التكنولوجي الكبير والنوعي، وظهور أجيال جديدة من وسائل الاتصال. وكلُّ ذلك يخضع لدى الدول المتقدمة لمنطق السوق والربح. وتنافس الدول والشركات على الموارد وعلى المجالات الاستراتيجية في البر والبحر والفضاء. ويسودُّ هذه الفضاءات التغالب، وعدم الخضوع لقواعد منظمة التجارة العالمية، ولا حتى للقوانين الداخلية للدول ولو من طريق التحايل.

- الظاهرة الأخيرة البارزة للاختلال العالمي: أزمتا الهوية والشعبيات. وقد انصرف الأنثروبولوجيون والسوسيولوجيون والاستراتيجيون - لعقدين أو ثلاثة - إلى تحليل مسائل التآزم الهوياتي. ومن ذلك تآزم

الهوية الدينية التي عدوها أساساً للأصوليات، كما أقبلوا على دراسة تأزم الهوية الإثنية، وقد راقبوا ذلك كله في بلدان آسيا وإفريقيا وشرق أوروبا. ثم فوجئ الجميع بالتأزم الجماعاتي أو الشعبويات، والتي ظهرت في أوروبا، وهي تبدو الآن في الولايات المتحدة أيضاً. وكان فريد زكريا - الكاتب اليميني الأميركي المعروف ذو الأصول الهندية - قد تحدث في كتاب له عام 2004 عن الديمقراطيات الشمولية، والديمقراطيات غير الليبرالية. وبعد كتابه المشهور عن عالم ما بعد أمريكا، صدر له عام 2020 كتاب اسمه «عشرة أطروحات عن المستقبل ما بعد وباء كورونا». وهو يعني بالتأزم الجماعاتي أو الشعبويات، نجاح أحزاب يمينية في بلد مثل الهند من طريق الانتخابات الديمقراطية بالحصول على الأكثرية الشعبية، نتيجة تعلق فئات من العامة حريصة على الهوية الخاصة، وخائفة على أصالة هويتها القومية والدينية من أهل الديانات والإثنيات الأخرى في البلاد. يبيد أن هذه الظاهرة الجديدة انتشرت في أوروبا وأميركا أيضاً. وهناك لا حديث ظاهراً عن التعصب الديني، بل الحديث عن الغرباء والهجرة والإسلام (وفي الهند وميانمار أيضاً). وعلى أي حال فإن الشعبويات توشك أن تغير وجه القارة الأوروبية وربما وجه العالم.

إلى أين يتجه العالم؟

لقد طُرحت مشروعات كثيرة لإصلاح النظام العالمي، أو جعله أكثر ديمقراطية وسعةً وانضباطاً وتأثيراً؛ لكن الطارحين كانوا في معظمهم من المفكرين والإنسانويين وكبار الفلاسفة والقانونيين، ولم تنجح مشروعات الإصلاح؛ لأن الكبار السائدين في النظام الدولي أو العالمي، لا يريدون ذلك؛ ولذلك اتجه المصممون على فتح الطريق للتغيير في النظام العالمي إلى التركيز على جعل النظام الحالي بشكله الحالي أكثر فعاليةً وإنسانيةً. فالاختلال سببه تركُّز المال والتقدم التكنولوجي والمعرفي / الاتصالي بأيدي الكبار في النظام العالمي، واضطرار الآخرين من الأوساط والصغار - وسط

التغالب على كل شيء - إلى الاقتراب من أحد الكبار لحماية النفس وتجنب الشر. والفكرة أنّ هؤلاء ما كانوا ليضطروا للاستتباع لو أنّ مؤسسات وجهات النظام العالمي لا تزال تعمل بسلاسةٍ وفعالية. ولذلك ومن أجل استحداث شيءٍ من التوازن ظهرت كتكتلاتٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ مختلفةٍ ومع أحد الكبار أو من دونه؛ لتصبح ذات شأنٍ في اقتصاديات العالم. ومن هذه التكتلات يأتي دعم للمؤسّسات الدولية، بالإضافة إلى أعمالها الخاصة في التنمية. وإلى جانب ذلك هناك ما صار يُعرف بالمجتمع المدني العالمي، والذي تتفرع عنه معظم الجمعيات والتنظيمات التي تؤدي خدماتٍ إنسانيةٍ كبرى مناطقياً أو على مستوى العالم.

وإلى هذا تتالت المقاربات القيمية والأخلاقية من جانب الفلاسفة والمفكرين وأهل الديانات لمواجهة الاختلالات في النظام العالمي، وبعض هذه المقاربات نابعة من / أو متفرعة على جهات المجتمع المدني العالمي؛ بينما بعضها الآخر - المتأثر بعودة الدين - يفكر أنّ الأديان الكبرى والصغرى لها دورٌ تؤديه - إذا تعاونت - من أجل أنسنة النظام العالمي، ووقف التغالب والصراع على الموارد والمجالات الاستراتيجية.

ورغم ذلك كلّه؛ فإنه من الصعوبة بمكان الحديث عن اتجاهٍ رشيدٍ وقريبٍ للعالم، دونما ضغوطٍ من المجتمع المدني العالمي وقواه، ومن جانب الأديان التي تتقارب من طريق الحوار البناء لترشيد نظام العالم، بإدخال قيم السلام والعدالة والكرامة عليه؛ وذلك لأنه وسط التغالب والصراع ودمار البيئة ووحشية السوق وتشويه الإنسان؛ فإنّ نظام العالم لن يزداد اختلالاً فقط؛ بل إنه سيسقط تحت وطأة التصدعات التي يزيد من تفاقمها التنكر المستمر لمظاهر وظواهر الدمار والتدمير للنظام البيئي، وإمكانيات حفظه واستدامته على أسس الأخلاق ووحدة الإنسانية وجوداً ومصائر.



توقُّف مجلة التفاهم عن الصدور

إنّ هذه الافتتاحية هي للعدد 70 من مجلة التفاهم، وهو عددٌ يتضمن ملفاً يتعلق بأزمات العالم ومصائره، وسيكون هذا العدد هو الأخير لهذه المجلة العلمية والاستراتيجية المتميزة، والتي بدأ صدورها عام 2002. صدرت هذه المجلة المتميزة باسم التسامح، ومنذ العدد 30 صار اسمها التفاهم وقد شرفت بكلا الاسمين من حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد طيب الله ثراه. وقد تفرّدت في العالمين العربي والإسلامي بالمنهج الواضح، والمقصد الواضح والرسالة الواضحة: رسالة النهوض وإرادته، ومقصد تغيير رؤية العالم لدى النُخب العربية والإسلامية بإشراك الجميع، والانفتاح على عالم العصر وعصر العالم، وإنجاز الجليل والجميل في الدين والثقافة. بدأت برؤية جلالته للاجتماع الإنساني بالاحتكام إلى مقولة: العقل والعدل والأخلاق، وبلغت ذروة دعوتها في إعلان السلطان قابوس للمؤتلف الإنساني، في أعدادها الثلاثة الأخيرة. وهناك إضافةً لذلك فهارس وأثبات شاملة ومن العدد الأول وإلى العدد سبعين. وتصدر الفهارس في ملحق منفصل.

كان شيخ المؤرّخين العرب ابن خلدون في خواتيم فصول مقدمته يستشهد أحياناً بالآية القرآنية الكريمة: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: 21]، وبالطبع فإنه إذا انتهى الصدور بالعدد سبعين (وهو رمز الكثرة في تراثنا)؛ فإنّ الرسالة لا تنتهي، كما لا تتضاءل جهود وآمال وزارة الأوقاف في العهد الجديد. وستظل - بعون الله وتوفيقه - هذه الرسالة التي تتعدد اهتماماتها وتتعدد نشاطاتها وأساليبها، ويتصاعد الاحتساب في أداء مهماتها في المستقبل.